التصوف والقيم الأخلاقية

إعداد الدكتور أحمد أمحرزي علوي

أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب مراكش

مهما اختلف العلماء في تعريف التصوف وحقيقته فإنه يعني بالإلتزام التام بالشريعة الإسلامية بصفة عامة وتصفية النفوس وتزكية القلوب وإصلاح الأحوال وتعمير الظاهر والباطن بكل خير حتى تكون الذات كلها في جميع أحواله متوجهة إلى الله تعالى وذلك هو مقام الإحسان الذي هو لب الإيمان وروحه وكماله. سُئل الجنيد رحمه الله عن التصوف فقال: " التصوف اجتناب كل خُلق دنيء واستعمال كل خلق سني وأن تعمل لله ثم لا ترى أنك عملت". وروى صاحب الحلية أن الجُنيد سُئل عن التصوف فقال: "اسم جامع لعشرة معاني: التقلل من كل شيء من الدنيا، عن التكاثر فيها،والثاني اعتماد القلب على الله عزوجل من السكون إلى الأسباب، والثالث الرغبة في الطاعات من التطوع في وجود العوافي، والرابع الصبر عن فقد الدنيا عن الخروج على المسألة والشكوى، والخامس التمييز في الأخذ عند وجود الشيء، والسادس الشغل بالله عزوجل عن سائر الأشغال، والسابع الذكر الخفي عن جميع الأذكار، والثامن تحقيق الإخلاص في دخول الوسوسة، والتاسع اليقين في دخول الشك، والعاشر السكون إلى الله عزوجل عن الاضطراب والوحشة. فإذا استجمع هذه الخصال استحق بها الإسم وإلا فهو كاذب".

وهذا التعريف الدقيق منه رحمه الله، يجعل التصوف ومنبعه الالتظام بالشريعة الإسلامية كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهما سبيل الخير وطريقه قال الجنيد: "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتبع سننه ولزم طريقته، فإن طرق الخير كلها مفتوحة عليه." وقال أيضا علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به".

ولما كان التصوف يهدف إلى بناء الإنسان في عقله وروحه وجسده ونفسه وفي اعامله مع المجتمع فإنه كما يرى الجنيد هو مبني على أخلاق ثمانية من الأنبياء عليهم الصلاة ولاسلام، وبها يُعرف الصوفي. يقول الجنيد: "مبنى التصوف على أخلاق ثمانية من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : السخاء وهو لإبراهيم والرضا وهو لإسحاق والصبر وهو لأيوب والإشارة وهي لزكريا والغُربة وهي ليحي ولبس الصوف وهو لموسى والسياحة وهي لعيسى والفقر وهو لمحمد صلى الله عليه وسلم. فالتصوف قائم على صفات النبوة وهي أسمى مبادئ السلوك.

فالتصوف ما هو إلا إيمان وعمل وعبادة ودعوى وأخلاق وبر مطلق وهو إرادة وجه الله تعالى في كل قول وعمل أو نية أو فكر دنيوي أو أخروي وهو التسامي بالبشرية على مستوى الإنسانية الرفيعة. قال أبو عبد الله المالقي في بُغية السالك في أشرف المسالك : "إعلم جعلني الله وغياك ممن شملته المواهب الإحسانية وعمته السعادة الربانية أن مقام الإحسان جامع نهايات منازل السالكين ومتضمن حقائق العارفين فأوله يُعرب عن القول وغايته تُؤذن بالوصول ولا غاية فوق رؤية الله

تعالى ولا تُدرك إلا بالقيام بوظائف الدين على أكمل أحوالها وأجمل أمورها وأحسن اصولها وفروعها".

وهذا المعنى هو الذي غرسه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو الذي غرسه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه وساروا عليه من بعده.

فقد جاء ت رسالة الأنبياء جميعا لتزكية النفس وتهذيبها، والمراد من تزكية النفس تطهيرها من نزعات الشر والإثم، وإزالة حظ الشيطان منها، وتنمية فطرة الخير فيها، ومتى حصلت في النفس هذه التزكية غدت صالحة لغرس فضائل الأخلاق فيها، وتهذيب طباعها تهذيبا مصلحا ومقوما وكابحا وموجها. وبتهذيب طباع النفس يتهيأ المناخ النفسي الصالح لتفجر منابع الخير من كل جانب ، وطبيعي انه متى تزكت النفوس وتهذبت طباعها استقام سلوكها الداخلي والخارجي .

من هنا كانت عناية الإسلام شديدة بإصلاح النفس وتزكيتها، وكانت بعثة الرسل قائمة على ذلك قال تعالى : " كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون "[1] ودعا الفرد إلى تزكية نفسه واعتبره مسؤولا عنها وربط فلاحه بمدى قدرته على تزكيتها قال سبحانه وتعالى: "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها" [2]

[1] ـ سورة البقرة الآية151
[2] ـ سورة الشمس الآية7-10

وقال أيضا " قد أفلح من تزكى"[1] وبين سبحانه أن نفع التزكية لايعود إلا على الفرد نفسه " ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه "[2]

ومع أن الإسلام جعل فلاح التزكية وخيبة التدسية منوطا بإرادة الإنسان وكسبه " قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها" فإنه لم يترك الإنسان هملا يضل الطريق فيشقى في الحياة، وإنما أهله بالعقل وأبان له معالم طريق الأخلاق الفاضلة بالوحيين" القرآن والسنة" وهداه بهما النجدين" وهديناه النجدين" [3] فرسم القرآن والسنة له معالم الفضائل وطرق اكتسابها واعتبر أن كمال إنسانيته، ورقي إيمانه رهينان بمدى قدرته على اكتساب الأخلاق الحميدة وبمدى صعوده في سلم الفضائل والتحلي بها.

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور :"إن أعظم ما بنى عليه الإسلام دعوته إلى مكارم الأخلاق وتهذيبها، هو العناية بتربية النفس وإكمالها، وتدريبها على متابعة الهدى والإرشاد، الذي يشهد العقل السليم بحقيقته وصلاحه ونفعه .فذلك الإرشاد يتلقاه المسلم من الهدي الديني المعرب عن حقيقة الإرشاد المعصوم عن الخطإ. والمبدأ في هذا هو حكم الفطرة والتجرد عن الضلالات الملصقة بأحوال البشر في عصور الظلمات ، والتي جاهد الرسل والأنبياء والحكماء نفوس مريدهم لاقتلاعها فاقتلعوا منها ما ساعدت أحوال الجامعة البشرية على اقتلاعها ن بحسب خصوص الدعوة وتباعد التعارف وتعاصي المدعوين وعدم استتباب وسائل نفوذ الدعوة وبقي متعلقا بها كثير من الضلالات

---

[1] ـسورة الأعلى الآية14

[2] ـسورة فاطر الآية18

[3] ـسورة البلد الآية10

والحجب عن الرشد ، كانت كالحبة الحمقاء لا تلبث قليلا حتى تعود إلى الاستيلاء على البذور الصالحة فتذوبها وتمتلك مواقعها . إلى أن جاء الإسلام وتهيأ له من التيسير الإلهي ما أزال الموانع المعترضة في وجوه الدعاة الصالحين من قبله فاجتثت بقايا تلك الضلالات من أعراقها، ومزق تلك الحجب وفصلها من أعلاقها فذلك مصداق الإتمام الواقع في قول رسول الله ﷺ :" **بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**".[1]

إن الأخلاق الإسلامية هي أسمى وأعظم ما يفخر به المسلمون ، والقرآن الكريم والسنة النبوية يشكلان المنهج والأساس الذي يستقي منه المسلم قواعد السلوك الأخلاقي في حياته الخاصة والعامة ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة فقال سبحانه وتعالى" وإنك لعلى خلق عظيم "[2] ، قال ابن عباس ومجاهد" لعلى دين عظيم" لا دين احب إلي ولا أرضى عندي منه وهو دين الإسلام .

قال ابن تيمية:" وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمد صلى اله عليه وسلم فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقا، هكذا قال مجاهد وغيره وهو تأويل القرآن كما قالت عائشة رضي الله عنها" كان خلقه القرآن.[3] وحقيقته المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر.[4]

وقال ابن كثير:" قوله تعالى" وإنك لعلى خلق عظيم" قال العوفي عن ابن عباس : أي وإنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام وكذلك قال مجاهد وأبو مالك والسدي والربيع بن انس والضحاك وغيرهم "[5] .

---

[1] -أصول النظام الإجتماعي في الإسلام ص128

[2] -سورة القلم الآية4

[3] -أخرجه مسلم 168/2-وأحمد216/6

[4] --الوصية الجامعةص30 --الزهد والورع والعبادةص90

[5] تفسير القرآن العظيم 8 /188

ولما كان الخلق هو الدين، اعتبرت الزيادة في الخلق زيادة في الدين، فقد قيل:" الدين كله خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين". ومن ازداد دينه كمل خلقه، ومن كمل خلقه كمل إيمانه قال صلى اله عليه وسلم :" **اكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا**" [1]

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي المؤمنين أفضل قال أحسنهم خلقا"[2] فجعل حسن الخلق أفضل الإيمان، ودلالة تمام الدين وبه يتحقق في الشخص مفهوم الإسلام الحق. وعن جابر بن قال : قال رسول الله صلى اله عليه وسلم : **إن أحسن الناس إسلاما أحسنهم خلقا**[3] .

وعن أبي أمامة أن رسول الله صلى اله عليه وسلم قال: أنا "زعيم" أو قال" ضمين" ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وان كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وان كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه "[4]

فدلت هذه الأحاديث وغيرها كثير على أن الارتقاء في مراتب الكمال الإيماني وبناء الحياة بناء سليما متوازنا، ثم الحصول بعد ذلك على الدرجات العلى في الدنيا والآخرة مرتبط بارتقاء المسلم في درجات حسن الخلق .

يقول الشيخ حينكة الميداني:" فربط رسول الله صلى اله عليه وسلم الارتقاء في مراتب الكمال الإيماني بالارتقاء في درجات حسن الخلق، وذلك لان السلوك الأخلاقي النابع من المنابع الأساسية للخلق

---

[1] أخرجه الترمذي 204/2-وابن حبان227/2-والحاكم3/1 وقال صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

[2] أخرجه الطبراني في الكبير212/10

[3] أخرجه احمد 89/5

[4] اخرجه ابو داود 172/7-والبيهقي في الكبرى249/10- والطبراني في الكبير117/8

النفسي في الإنسان ، موصول هو والإيمان وظواهره وآثاره في السلوك ببواعث نفسية واحدة .

فصدق العبادة لله تعالى عمل أخلاقي كريم لأنه وفاء بحق الله على عبيده، وحسن المعاملة مع الناس وفاء بحقوق الناس المادية والأدبية فهي بهذا الاعتبار من الأعمال الأخلاقية الكريمة .

فإذا تعمقنا أكثر من ذلك فكشفنا أن الإيمان إذعان للحق واعتراف به، رأينا أن الإيمان أيضا هو عمل أخلاقي كريم بخلاف الكفر بالحق فهو دناءة خلقية فإذا ضممنا هذه المفاهيم إلى المفهوم الإسلامي العام الذي يوضح لنا أن كل أنواع السلوك الإنساني الفاضل فروع من فروع الإسلام والإسلام التطبيقي آثار للإيمان وثمرات عملية له .

إذا جمعنا كل هذه المفاهيم وجدنا أن اكمل المؤمنين إيمانا وإسلاما وأعلاهم درجة في الدنيا والآخرة أحسنهم خلقا .

فأحسن الناس خلقا لابد أن يكون أصدقهم إيمانا وأخلصهم نية، وأكثرهم التزاما بما يجب على العباد نحو ربهم من عبادة وحسن توجه له وصلة به وأكثرهم التزاما بحقوق الناس المادية والأدبية ".[1]

ومن هنا يكون حسن الخلق عبادة يثاب عليها صاحبها ولا تقل ثوابا عن العبادات الأخرى إن لم تزد عليها إذ هي الثمرة الحقيقية لها فعن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال:"ما من شئ اثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن"[2] وعن عائشة ﷺ قالت : سمعت رسول الله (صلى اله عليه وسلم) يقول :" إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة

---

[1] راجع الأخلاق الإسلامية38/1 بتصرف

[2] اخرجه ابو داود 253/4 والترمذي362/4 وقال حديث حسن صحيح

الصائم القائم .[1] وروى الطبراني بسند جيد أن النبي ﷺ قال:" **إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة** ."[2]

فإذا كانت العبادات من صيام وصلاة وحج وغيرها أمرها قاصرا على فاعلها وصلة خاصة يتوجه بها الإنسان إلى ربه فإن حسن الخلق إضافة إلى ارتباطه بالله بصدق الإيمان وإخلاص النية وأداء الحقوق يرتبط بالمجتمع ارتباطا وثيقا ويمثل القاسم المشترك لكل رواقده من سياسة واقتصاد وأدب وعلم وتربية وغيرها، وهذه سمة تميز الأخلاق الإسلامية عن غيرها، فهي في الإسلام لا تقتصر على الفرد أو الجماعة بل تجمع بين الفردية والجماعية فالفرد الممتاز نتاج الجماعة، والجماعة تتقدم في طريق النهضة والرقي بالممتازين من أبنائها، ولا تقتصر الأخلاق أيضا على قطاع في الحياة دون آخر، بل هي شاملة لكل نواحي الحياة، وعلى هذا الأساس يكون للعقيدة أخلاقا،وللسياسة أخلاقا، وللاقتصاد أخلاقا، وللاجتماع أخلاقا وللعلم أخلاقا ولكل شيء على الإطلاق أخلاقا ولا يكون هناك شيء في حياة الإنسان بلا أخلاق".[3]

ولما كانت الأخلاق شاملة لكل نواحي الحياة فلا غرو أن تكون هي الدين كله ولا غرو أن يكون أحسن الناس دينا وأكملهم إيمانا وأقواهم خلقا وأتمهم حياة رسول الله صلى اله عليه وسلم فعن انس ﷺ قال: كان رسول الله صلى اله عليه وسلم احسن الناس خلقا "[4]

يقول ابن القيم رحمه الله: "كلما كانت الأخلاق في صاحبها أكمل كانت حياته أقوى وأتم ، ولهذا كان خلق الحياء مشتقا من الحياة

---

[1] اخرجه ابن حبان229/2-والحاكم60/1 وانظر مكارم الأخلاق للآ جري ص36

[2] اخرجه الطبراني في الكبير 233/1

[3] راجع مذاهب فكرية معاصرة ص484

[4] المستطرف 76/1

اسما وحقيقة، فأكمل الناس حياة أكملهم حياء ونقصان حياء المرء نقصان حياته، فان الروح إذا ماتت لم تحس بما يؤلمها من القبائح فلا تستحي منها، فإذا كانت صحيحة الحياة أحست بذلك فاستحيت منه، وكذلك سائر الأخلاق الفاضلة والصفات الممدوحة تابعة لقوة الحياة، وضدها من نقصان الحياة ، ولهذا كانت حياة الشجاع اكمل من حياة الجبان ، وحياة السخي اكمل من حياة البخيل وحياة الفطن الذكي اكمل من حياة الفدم البليد ولهذا لما كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم- أكمل الناس حياة حتى إن قوة حياتهم تمنع الأرض أن تبلي أجسامهم كانوا اكمل الناس في هذه الأخلاق، ثم الأمثل فالأمثل من اتباعهم، فانظر الآن إلى حياة همازمشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم، وحياة جواد شجاع برعادل عفيف محسن، تجد الأول ميتنا بالنسبة إلى الثاني ولله در القائل .

وما للمرء خير في حيـــــــاة إذا ما عد من سقط المتاع[1]

وقال الشاعــر:

كل الأمور نزول عنك وتنقضي إلا الثناء فانه لك بـــــــاق

ولوأني خيــرت كـــــل فضيلة ما اخترت غير مكارم الاخلاق

لقد خلق الله البشر وأودع في فطرهم الوجدانية ميلا إلى مكارم الأخلاق ورغبة داخلية بالتزامها وممارسة كل سلوك يدفع إليها، ونفورا واشمئزازا من رذائل الأخلاق ورغبة داخلية باجتنابها واجتناب كل سلوك هو من آثارها." ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها" وقد تنحرف الطبيعة الإنسانية نحو الشر، ولكن الإنسان قادر على أن يردها ويستعيد سيطرته على قيادتها، إذ في النفس قوة كامنة تهيؤ له النصح-

---

[1] مدارج السالكين266/3

(النفس اللوامة):" وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى"- وتحدد للإنسان ما يجب عمله وما يجب تحاشيه كما جاء في الحديث:" إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من نفسه يأمره وينهاه "[1]

هذه السلطة هي التي تسيطر على قدراتنا وعلى غرائزنا وهي أسمى جزء في نفوسنا وهي العقل .

يقول الشيخ عبد الله دراز رحمه الله:" ففي الإنسان إذن قوة باطنة لا تقتصر على نصحه وهدايته وحسب ، بل إنها توجه إليه بالمعنى الصريح أوامر بأن يفعل أولا يفعل، فماذا تكون هذه السلطة التي تدعي السيطرة على قدراتنا الدنيا إن لم تكن ذلك الجانب الوضيء من النفس والذي هو العقل "[2]

هذا الجانب الوضيء من النفس كانت وظيفة الدين تنظيمه وتوجيهه ووضع المقاييس الثابتة له حتى لا يميل مع الهوى والمنفعة والأغراض الذاتية، إنما يرجع دائما إلى معيار ثابت لا يتأثر بالأهواء ولا تؤثر فيه الأهواء.

ومن هنا فإن الأخلاق الإسلامية تتسم بسمة الثبات، وثبات الأخلاق من ثبات القيم والمقاييس العليا التي قدمها الإسلام في إطارات واسعة ولم يسمح بتجاوزها، وإن أتاح لها فرصة الحركة في ظل الضوابط والحدود التي جاءت سمحة يسيرة، بتقرير عامل الزمن ومراعاة الظرف والطاقات. ومن نقطة ثبات الأخلاق يتبين الفارق بين الأخلاق والتقاليد، فالأخلاق ثابتة لأنها جزء من الدين الموحى به، وهي

---

1 -

2 -دستور الأخلاق في القرآنص27

بذلك شطر كيان متكامل رباني المصدر إنساني الهدف، أما التقاليد فهي وسائل عارضة من صنع المجتمعات تختلف وتتغير باختلاف الزمان والمكان والبيئة .

إن ما يميز الأخلاق في الإسلام كونها تتصل بالفطرة الإنسانية ولا تتعارض معها، وكونها ربانية المصدر وليست بشرية من أهواء الناس وشهواتهم، وهذا من شأنه ان يحفظ الشخصية الإنسانية سليمة من عوامل الاضطراب والقلق والضياع والتفسخ ويعطيها إلى ذلك قدرتها على الصمود أمام الأخطار ويمنحها الإرادة القادرة على التغيير.

يقول مصطفى صادق الرافعي:"لو أنني سئلت أن أجمل فلسفة الدين الإسلامي كلها في لفظين ، لقلت:إنها ثبات الأخلاق ،ولو سئل أكبر فلاسفة الدنيا أن يوجز علاج الإنسانية كله في حرفين لما زاد على القول إنه ثبات الأخلاق ،ولو أنه اجتمع كل علماء أوروبا ليدرسوا المدنية الأوربية ويحصروا ما يعوزها في كلمتين لقالوا ثبات الأخلاق."[1]

[1] - وحي القلم 73/2